المصدر : الامـــــــة
التاريخ : ١ جمـــادى الاول ١٤٠٢هـ

بقلم الدكتور : سر الختم عثمان علي

دراســـــة

دور المسلمين الثقافي والتربوي في غرب أفريقيا

■ الفتح الاسلامي لمصر .. كان المنطلق لانتشـــار الاســـــلام في غـــربـي افـريقيـــا

□□ بعد ان انتشر الاسلام في منطقة غرب افريقيا ، اصبح يمثل - إلى حد كبير - الاطار العام لحياة اهلها ، واخذ يؤثر في كل مظهر من مظاهر حياتهم ، وكان اثر الاسلام اوضح ما يكون في جوانب التنشـــئة وفي كل ما يتعلق بنواحي السلوك الانساني .. فقد نقل الاسلام هـذه الجماعـات الوثنيـة إلى الحيـاة الاسـلاميـة الحقيقية .. □□

مـن القـرن الخـامس إلى القـرن الثـامـن ..

قبل أن نتحدث عن الحياة التربوية في المجتمعات الاسلامية التي قامت في غرب افريقيا ، لابد من إعطاء القارىء فكرة عن دخول الاسلام وانتشاره في هذه المنطقة من القارة الافريقية ، ذلك أن الحديث عن الكيفية التي قامت بها هذه المجتمعات ، يبرز الأسس الاجتماعية والثقافية للحياة التربوية فيها ..

وقد اخترت الفترة - التي تتناولها هذه الدراسة - من القرن الخامس إلى القرن الثامن (الهجري) ، وذلك لانها تمثل فترة تاسيس وترسيخ المجتمعات الاسلامية بالنسبة لتاريخ الفكر التربوي الاسلامي خاصة ، وللتاريخ الاسلامي بصفة عامة ...

مجتمعـــــات وممـالـك إسـلاميـــــة ..

عندما نتحدث عن دخول الاسلام وانتشاره في غرب أفريقيا ، نجد أن المنطلق لذلك هو « فتح مصر » ، ذلك انه بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مصر ، سار في جيشه قاصداً بلاد المغرب

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

حتى وصل برقة ، ومن برقة وطرابلس اتجهت الجيوش الاسلامية إلى بقية بلاد المغرب ، ومنها زحفت إلى غرب افريقيا ، التي أطلق عليها بعض المؤرخين والجغرافيين المسلمين « بلاد السودان » .

ويعد القائد المسلم عقبة بن نافع من أبرز القادة المسلمين الذين ادوا دوراً كبيراً في حركة الفتوحات الاسلامية في منطقة غرب افريقيا ، حيث إنه بعد أن تم له فتح بعض الأجزاء ، بنى فيها عدداً من المساجد وترك فيها بعض العلماء ليعلموا اهل

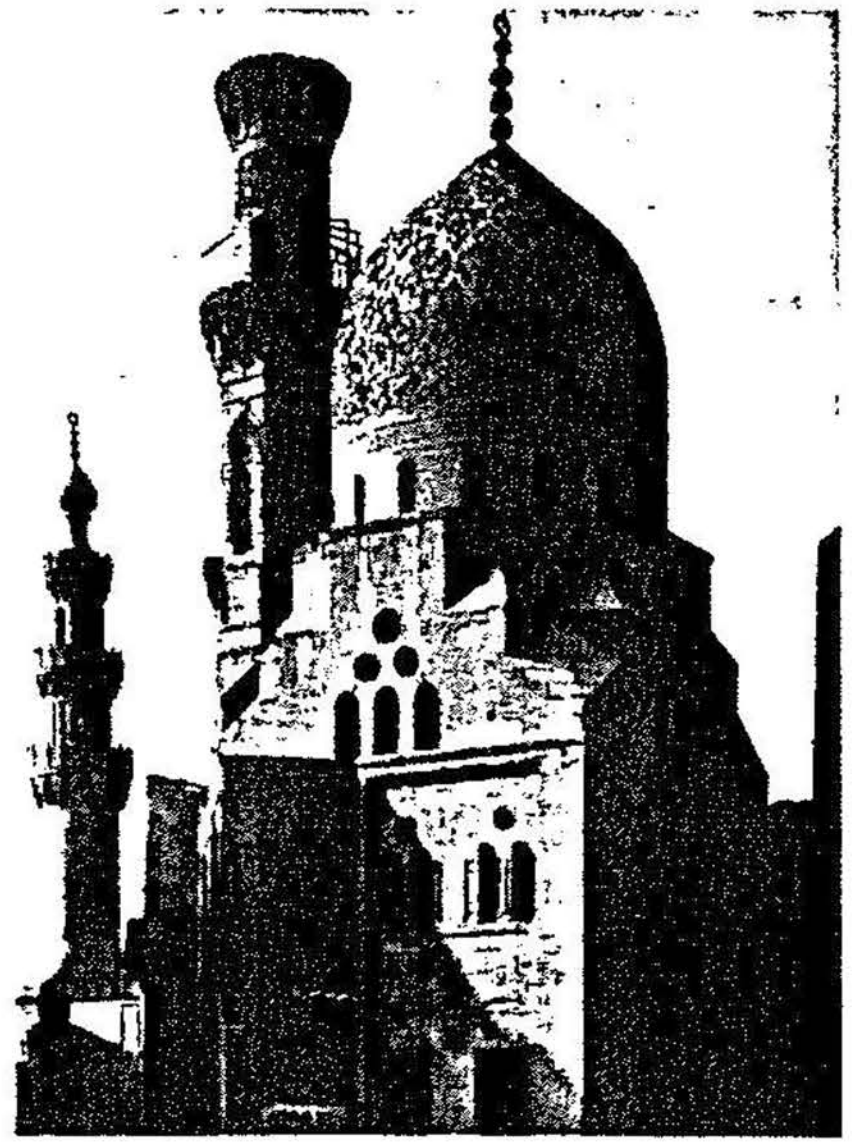

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

● القارة الافريقية حيث يشكل الاسلام الاطار العام لحياة اهلها بعد تخليصهم من الوثنية ●

■ مع حركة الفتوحات الاسلامية في غربي افريقيا : القائد عقبة بن نافع يبني المساجد .. ويترك فيها العلماء ليعلموا أهل البلاد .

تلك البلاد تعاليم الدين الحنيف ..

وإذا انتقلنا إلى المجتمع الافريقي في هذه المنطقة قبل دخولها في الاسلام ، نجد ان منطقة غرب افريقيا كانت **خاضعة لمملكة وثنية قوية هي « غانا »** ، ويبدو أنها استمدت قوتها من التجارة ، خاصة تجارة الذهب ، وفي هذا الصدد يقول اليعقوبي :

[... ومملكة غانا ، وملكها ايضاً عظيم الشان ، وفي بلاده معادن الذهب .] .. وتشير بعض المراجع إلى ان هذه المملكة « غانا » **تضم كل المنطقة التي تقع بين اعالي نهر النيجر والسنغال من جهة الجنوب والغرب ، إلى الصحراء الكبرى من جهة الشمال ، كما تحدها شرقاً بلاد « الكانم » ـ** المعروفة حالياً بتشاد على وجه التقريب ـ ويرجح بعض المؤرخين أن مملكة « غانا » قد وصلت شمالاً حتى المغرب الاقصى ، وان الفتوحات بقيادة عقبة بن نافع قد بلغت الحدود الشمالية لهذه المملكة ..

ومهما يكن من امر ، فإن المسلمين استطاعوا التغلب على مملكة « غانا » وإدخالها في الاسلام في القرن الخامس الهجري ، **وكان للمرابطين دور كبير في هذا الأمر** ومن ثم اعتنق ملوك غانا الاسلام .. وفي اعتقادي أن دخول الاسلام مملكة « غانا » ، **وزوال النفوذ الوثني** كان عاملاً اساسياً في انتشار الاسلام على نطاق واسع في منطقة غرب افريقيا ..

وما لبثت مملكة « غانا » أن اعتراها الضعف بسبب تحوُّل الطرق التجارية عنها ، وبذلك فقدت إحدى الدعائم التي كانت ترتكز عليها ، وتحول نفوذها إلى إحدى الممالك الصغيرة التي كانت تابعة لها ، وهي مملكة « مالي » ، فورثت السيطرة

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

دور المسلمين الثقافي والتربوي في شرب أفريقيا

■ الحج .. وثق الصلات بين المجتمعات الاسلامية في غربي افريقيا وبقية أنحاء العالم الاسلامي .

السياسية والنفوذ التجاري الذي كانت تتمتع به مملكة « غانا » ، بل انقلبت الاوضاع ، فصارت « غانا » إحدى الممالك الصغيرة التابعة لمملكة « مالي » ، **وكان اول من اعتنق الاسلام من ملوك « مالي » يدعى « برمندانه »** .

كذلك دخل الاسلام في المنطقة التي تعرف ببلاد « الكانم » ـ تشاد حالياً ـ وكانت تحكمها مملكة وثنية ثم اعتنق ملوكها الاسلام في القرن الخامس الهجري ، وصارت لها علاقات مع بعض البلاد الاسلامية كمصر ، **وكان الحج من اهم العوامل التي وشجت الصلات** بين المجتمعات الاسلامية في غرب افريقيا وبقية انحاء الوطن الاسلامي آنذاك ، إلاّ أن بعض المؤرخين اشاروا إلى انه قد قامت في بلاد « الكانم » مملكة مشهورة هي مملكة « البرنو » ، التي كانت تدين ايضاً بالإسلام ، وكان لملوكها صلات مع بعض سلاطين المماليك في مصر .

الإطـــار العـــام للحيـــــاة التربويـــة ..

بعد ان انتشر الاسلام في منطقة غرب افريقيا ، اصبح يمثل ـ إلى حد كبير ـ الإطار العام لحياة اهلها ، واخذ يؤثر في كل مظهر من مظاهر حياتهم .. وكان اثر الاسلام اوضح ما يكون في جوانب التنشئة وفي كل ما يتعلق بنواحي السلوك الانساني .. فقد نقل الاسلام هذه الجماعات الوثنية إلى الحياة الاسلامية الحقيقية ، فشمل التحول النواحي الاخلاقية واساليب التنشئة ..

وتمثلت وسائل هذا التحول في **جهود الدعاة والعلماء والمعلمين المسلمين** .. ولا غرو فإن الدعوة للاسلام هي تربية اخلاقية متكاملة كما في قوله تبارك وتعالى :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (الجمعة:٢) .

وتشير بعض المراجع إلى ان التربية عند علماء الاسلام هي : **« العمل على رعاية نمو الناشيء وتوجيه استعداده ومواهبه ووظائفه النفسية حتى تصل إلى كمالها »** .

القـــرآن اســـــاس التـربيـــة ..

إن ما اشار إليه بعض المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، الذين

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

زاروا غرب افريقيا ، يدل على مدى حرص أهالي تلك البلاد على تربية ابنائهم تربية إسلامية صحيحة ، فقد أبرز لنا الرحالة المسلم ابن بطوطة صورة للمجتمع الاسلامي في مملكة « مالي » التي زارها في منتصف القرن الثامن الهجري ، فذكر أن من أكثر المظاهر التي جذبت انتباهه خلال إقامته هناك **هي مواظبة الناس على الصلاة وادائهم لها في جماعات ، كذلك اشار إلى اهتمام النُاس بتعليم ابنائهم الصلاة وحفظ القرآن الكريم منذ سن مبكرة** .. وفي هذا الصدد يقول ابن بطوطة :

[ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها .. ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تنقل عنهم حتى يحفظوه] ..

ولا شك ان إشارة ابن بطوطة توضح أن القرآن الكريم كان يمثل اساساً لتربية وتعليم أبناء هذه المنطقة ..

دور المســـــــــــاجد ..

ومنذ دخول الاسلام .. اهتم المسلمون في غرب افريقيا بإقامة المساجد ـ وقد أشرنا إلى أن عقبة بن نافع اقام عدداً من المساجد ، وترك فيها بعض من صحبه في غزواته من العلماء ، ليعلموا اهل تلك البلاد تعاليم الاسلام .

وقد اهتم حكام الممالك الاسلامية ـ التي قامت في هذه البلاد ـ بإقامة المساجد ، وهناك إشارة إلى ان احد ملوك « مالي » المشهورين ويدعى « منسا موسى » ، بنىٰ مساجد في بعض المدن الهامة ، مثل تمبكتو ، وقيل إنه عهد إلى أحد المهندسين في غرناطة بعمل تصميم لمسجد « تمبكتو »، وكان هذا المسجد مبنياً في الأصل من الطين ..

وقد نهضت هذه المساجد بدورها كمراكز دينية وثقافية وتعليمية ـ وهو الدور الذي ارتبط بالمسجد منذ نشأته ، فقد قامت حلقات الدراسة فيه منذ نشأ ، واستمرت كذلك على مر السنين والقرون في مختلف البلاد دون انقطاع ..

ولعل السبب في جعل المسجد مركزاً ثقافياً هو ان الدراسات في سني الاسلام الأولى كانت دراسات دينية تشرح تعاليم الاسلام وتوضح اسسه واحكامه ، وهذه تتصل بالمسجد اوثق اتصال ،

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

ثم إن المسلمين في عصورهم الأولى توسعوا في فهم مهمة المسجد ، فاتخذوه مكاناً للعبادة .. ومعهداً للتعليم .. وداراً للقضاء ..

وفـــــــــادة العلمـــــــاء ..

تجلى أثر الاسلام في نظرة حكام هذه البلاد إلى العلماء المسلمين ، فكانوا يشجعون العلماء ـ من بعض الاقطار الاسلامية ـ ليأتوا إلى بلادهم ويعلّموا الناس أمور دينهم ، فذهب كثير من العلماء ، من مصر والمغرب إلى بلاد « مالي » و « كانم » ، وكانوا يجدون كل إجلال وتكريم من جانب الحكام والرعية ، ومن اولئك العلماء ، عالم يدعى **إبراهيم بن الطويجن** ، الذي نشأ وتعلم في غرناطة ، ثم تجول في بعض البلاد الاسلامية ، وأخيراً استقر به المقام ببلاد السودان الغربي ، وكانت له صلات ببعض ملوكه ، فأقام فيها حتى توفي سنة ٧٢٩هـ .. يقول عنه ابن حجر العسقلاني في « الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة » :

[وكان بارعاً في عدة فنون وعلوم ، وهو الذي وصفه ابن خلدون بفارس الادباء] ..

ويشير بعض المؤرخين إلى أن هناك مجموعة من علماء مصر وفدت إلى « تمبكتو » ، وأمضت فيها فترة طويلة مشتغلة بتدريس العلوم الاسلامية ، ولم يقتصر نشاط هؤلاء العلماء على مدينة « تمبكتو » ، بل امتد إلى « بتي » عاصمة مملكة مالي ..

■ **التربية عند علماء الاسلام : رعاية نمو الناشئ وتوجيه استعداده ومواهبه ووظائفه النفسية حتى تصل إلى كمالها .**

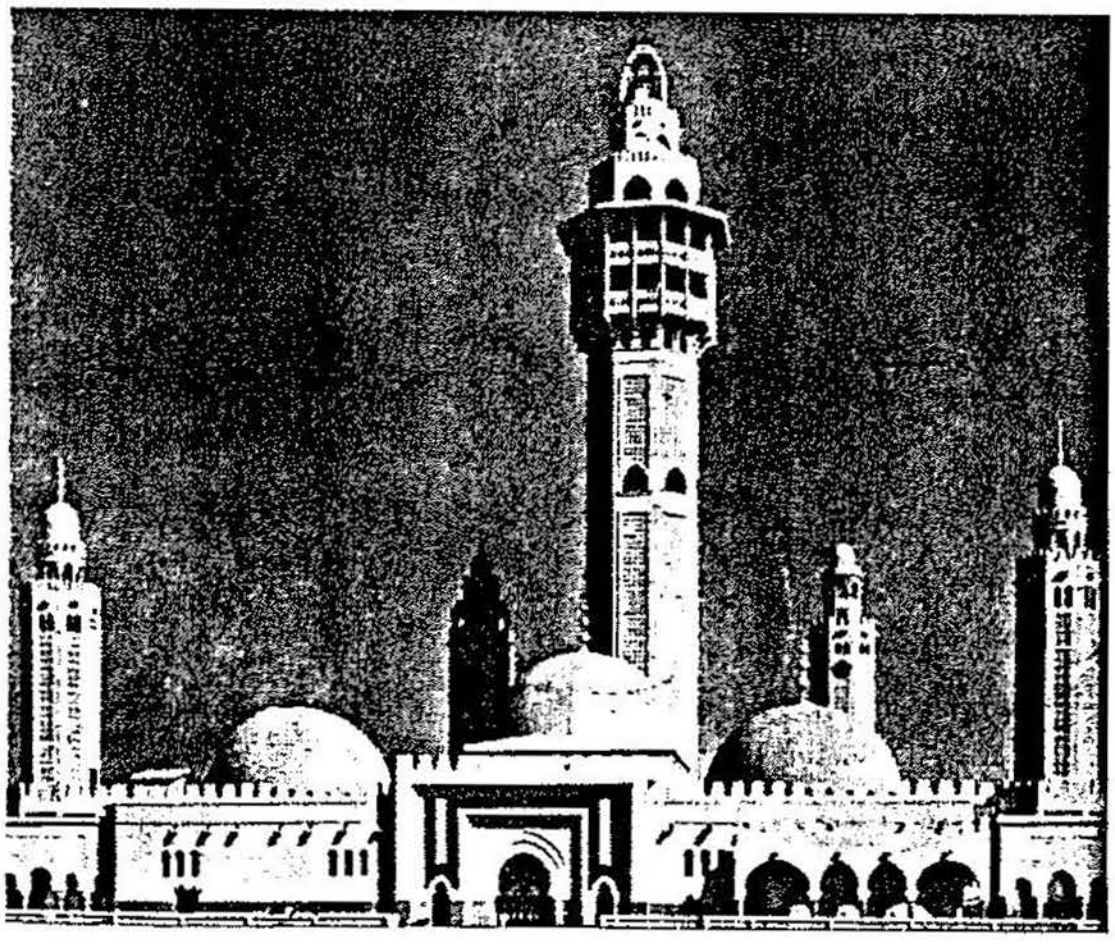

● جامع طوبى الكبير من الفنون المعمارية الرائعة في السنغال ●

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

وكان لهؤلاء العلماء اثر كبير في الحياة التربوية والاجتماعية في غرب افريقيا ، فكانوا يقومون بالتدريس ، كما كان عليهم واجب التوجيه الديني ، وبذلك افلحوا في ربط التربية بالمجتمع ، ولعل هذا الربط يعتبر من اكبر القضايا التي تواجه التربية في العصر الحديث ..

ابتعـــــــــاث الطـــلاب ..

يعتبر إيفاد طلاب غرب افريقيا لطلب العلم ـ وخاصة في الأزهر ـ من أبرز مظاهر الحياة التربوية في ذلك العصر .. ولقد بدأت هذه الظاهرة بشكل ملحوظ بعد رجوع « منساموسى » من الأراضي المقدسة ـ بعد أدائه فريضة الحج ـ وكان هذا السلطان قد ذهب للحج عن طريق مصر ، وذلك في الربع الأول من القرن الثامن الهجري ..

بعد هذه الرحلة ، أخذ السلطان يشجع إيفاد الطلاب من مملكته ليتعلموا في الأزهر ، وعند عودتهم كانوا يمارسون النشاط العلمي والديني ويعينون ائمة للمساجد وقضاة ومعلمين في مساجد « تمبكتو » و « جتي » و « نيافي » ، المدن التي غدت مراكز علمية هامة ..

وكان يؤم الأزهر ـ في ذلك الوقت ـ طلاب من مختلف البلاد الاسلامية ، وكان طلاب غرب افريقيا يمثلون جزءاً لا يستهان به

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

دور المسلمين الثقافي والتربوي في شرب أفريقيا

■ نهضت المساجد بدورها الديني والثقافي والتعليمي في غربي افريقيا . ونجح العلماء في مواجهة أكبر قضايا التربية في العصر الحديث : ربط التربية بالمجتمع .

من هؤلاء الطلاب ، وكانت لهم اروقة تعرف بهم ، واشارت المراجع ـ التي تناولت تاريخ الازهر ـ إلى هذه الاروقة ، فذكرت رواق « برنو » ورواق « الدكارنة » ، وكان لكل رواق شيخ يشرف عليه ، كما كان لكل رواق مكتبة ..

وقد تأثرت الحياة التربوية ـ في غرب افريقيا ـ بطبيعة الحياة الدراسية في الأزهر ، ولم يقتصر هذا الأثر على المناهج الدراسية ، بل شمل ايضاً اسلوب الدراسة ـ الذي كان متبعاً في الأزهر ـ ذلك أن بعض المؤرخين يشير إلى قيام حلقات الدراسة في مساجد غرب افريقيا ، « وكان نظام الحلقات العلمية في وقت إنشاء الجامع الأزهر هو نظام الدراسة المتازة في مصر الاسلامية ، وقوام الحياة الجامعية والفكرية في العالم الاسلامي ، وكان من الطبيعي أن الأزهر حينما دخل الميدان الدراسي ، أن تقوم فيه وفقاً لهذا النظام التقليدي المتوارث ، وهكذا بدأت الدراسة في الأزهر في حلقات علمية وادبية .. »

[الأزهر في الف عام ـ محمد عبد المنعم خفاجي]

دور غرب افريقيا ـ التربوي ـ في العالم الاسلامي ..

عندما تشرَّب غرب افريقيا بفكر الاسلام وثقافته ، اصبح له دور بنَّاء في تنمية الحياة التربوية ، تعدَّى المحيط المحلي إلى محيط العالم الاسلامي الكبير ، وقد تمثل هذا الدور في جوانب معينة ـ منها ظهور فئة من العلماء من أبناء هذه البلاد ، من هؤلاء العلماء نذكر ـ على سبيل المثال ـ « الشيخ صبيح بن عبد الله الكلواتي الحارسي » ، الذي تلقى العلم على الشيخ النجيب ، والشيخ شمس الدين بن العماد ، ثم ذهبَ إلى دمشق للحصول على المزيد من العلم ، وكان له نشاط علمي في القاهرة ، وتوفي بدمشق عام ٧٣١هـ .

وهناك ايضاً الشيخ عبد الملك بن علي الكانمي ، الذي درس على الشيخ النجيب ايضاً ، ثم قام بالتدريس في مصر سنة ٧٢٠هـ ..

كذلك تشير المصادر إلى ان بعض هؤلاء العلماء الأفارقة ،

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

ألقى دراسات شاملة في العلوم الدينية ، ليس هذا فحسب ، بل كان بعضهم يؤلف الكثير حتى تعم الفائدة ، ومن هؤلاء : الشيخ محمد بن احمد بن عثمان الحرار « التكروري الاصل » ـ القرافي القاهري ، ويعرف بالتكروري ، وربما كان يقال له قديماً « الغاني » نسبة لغانا ، وقد ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة بالقرافة الكبرى ، وحفظ القرآن وأخذ الفقه والرسالة ، وقرا وألف كتباً بخط يده وتقدم في صناعة الكتب » .

ومن ناحية أخرى يتجلىّ إسهام غرب أفريقيا في تنمية الحياة التربوية في البلاد الاسلامية في إنشائهم لبعض المؤسسات التعليمية ، فقد أشارت بعض المراجع إلى إسهام أهل « الكانم » في بناء مدرسة كانت من المدارس المصرية المشهورة آنذاك ، حتى إن المقريزي ذكرها عندما تحدث عن المدارس المشهورة في مصر فقال :

« هذه المدرسة للمالكية ، وهي بخط حمّام الريش من مدينة مصر ، كان « الكانم » من طوائف التكرور ، لما وصلوا إلى مصر في سنة بضع واربعين وستمائة قاصدين الحج ودفعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالاً بناها به وَدَرَّسَ فيها . فعرفت به وصار لها في بلاد التكرور سمعة عظيمة ، وكانوا يبعثون إليها في غالب السنين المال ... » .

اللغـــــــــة العربيـــــــــــة ..

وتبع دخول الاسلام انتشار للثقافة واللغة العربية ، وتمثل هذا النشاط في ظهور الكتب العربية في المنطقة ، فمثلاً ، عندما رجع « منسا موسى » من الحج ، اشترى من مصر عدداً من الكتب ، وقد أشار ابن بطوطة إلى انه وجد عند أحد أمراء غرب افريقيا عدداً من الكتب العربية .. كما أن هناك إشارة إلى أن اللغة العربية انتشرت على نطاق واسع رغم أن البربرية كانت متداولة وسط البربر .. الذين كان لهم دور كبير في نشر الدعوة الاسلامية في غرب افريقيا ..

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية